واذا الاحزان في النفس غدَتْ واحاقت بي مراراتُ الشجونْ
وهمومُ القلب عني أبعدَتْ طيبَ عيشي فتمنّيتُ المنونْ
كان قربي قائما فنفى عنّي الكدَرْ
وعدانی باسما وسعيدًا في البشرْ
ذا صديقي!

***

دُم لي َالعمرَ رفيقاً وخليلْ ودليلًا في تعاريج الحياة
واقتبل مني صفاء لا يحول ووداداً خالصاً حتى المماتْ
واذا الدهرُ تغيّرْ ومُنينا بالبعادْ
اتذكرني وتذكُرْ بعض ما في ذا الفؤادْ
يا صديقي!

ترجمة

السيّد فرنسوا بيكه

لحضرة الاب بطرس ساره الراهب اللبناني (تابع)

القنصل بيكه في حلب (تتمة)

﴿القنصل بيكه واندراوس اخيجان﴾ ويؤخذ من بعض كتابات المسيو بيكه انهُ منذ وصوله حلب فكَّر باندراوس اخيجان المرتدّ عن اليعقوبية الى الكثلكة اذ توسّم فيه الذكاء والتقوى وارسله الى رومية (١ آملًا انهُ سيكون يوماً اسقفاً

١) جاء في ترجمة الدويهي للطيب الاثر المطران بطرس شبلي (وجه٢٤و٢٥) : «ان اندراوس اخيجان المولود في ماردين من ابوين تابعين ضلال البرادعي وساويرا قد ارتدَّ من الهراطقة الى

كاثوليكيّاً على الطائفة السريانيّة. وبعد ان تخرّج اندراوس في العلوم عاد الى حلب وكان ابوه مستاءً منه لكثلكته فلم يستطع ان يقيم في حلب. فأتى جبل لبنان وسكن دير قنوبين عند بطريرك الموارنة (١ الذي سامه كاهناً لما رأى فيه من غزارة العلوم ورسوخ القدم في الفضيلة. وكان الكاهن اندراوس في قنوبين لمّا توجهت اليه الانظار واتفقت جميع الآراء على تسقيفه. ولاجل هذه الغاية دعا المسيو بيكه البطريرك شمعون الى تناول طعام الظهر عنده وبعد الغداء فاتحه بما كان طلبه منه في شأن انتخاب خلف للاسقف المتوفى وقال لهُ : ان الصداقة تخوّله الحقّ بان يقترح عليه ويتقدّم له كاهناً سريانيّاً يكون خير خلف على الكرسي المترملة ولمح بذلك الى اندراوس المشار اليه فقال البطريرك : « انه ليسرني ان اتخذ هذه الفرصة السعيدة لابداء اعتباري لك وتقديري فضلك واني سأستدعي اندراوس واقيمه رئيس اساقفة على حلب »

فسرّ القنصل كل السرور من اجابة طلبه واخبر المرسلين بنجاح مسعاه واقرّ الرأي ان يكتبوا الى البطريرك الماروني في قنوبين ليرقي الاب اندراوس الى الاسقفية [illegible] سده بلا [illegible] ريك متوفي [illegible] سل القنصل ساعياً الى لبنان وزوده كتاباً (٢ الى البطريرك فيه يطلعه على ما يرى من الاستعداد الحسن في طائفة السريان للرجوع الى حضن الكنيسة وذلك بتدبير عناية الله الذي سمح بموت رئيس اساقفتهم وقيّض لهُ خلفاً اسقفاً كاثوليكيّاً وانه قد وقع الاختيار برضى شمعون

الوحدة الكثوليكيّة بآية من آيات والدة الحنا الطاهرة عن يد الاب اماتوس (Aimé Chezaud) اليسوعي وبعد جحده الضلال أتى جبل لبنان عند البطريرك الماروني يوسف حليب العاقوري الذي ارسلهُ في ١٦٤٦ الى رومية ليتثبت في الايمان. فاقام في المدرسة سنتين رقيباً على التلاميذ وكان يدرس الناموس الادبي على الخوري جرجس بن عبدالله الحاقلي (وكان من رفقائه في المدرسة العلامة الدويهي)

١) هو البطريرك يوحنا الصفراوي من بيت البواب من صفرا في فتوح كسروان (١٦٤٨–١٦٥٦)

٢) يظهر على ما قال الدويهي ان بيكه كتب غير مرة الى البطريرك بخصوص تسقيف اندراوس فما كان البطريرك يجيبه الى طلبه إلّا بعد توسّط الدويهي نفسه. ولمّا سقف اندراوس اوصاه ألّا يتعرّض لشؤون الموارنة في حلب (راجع ترجمة الدويهي ص ٢٦) .

بطريرك السريان نفسه على الكاهن اندراوس الذي عُرف بفضله وفضيلته منذ اقامته في دير قنوبين. فهو اي بيكه يرجو من البطريرك ان يستقف اندراوس في قنوبين ويرسله حالاً الى حلب

وكان بطريرك لبنان عالماً بشهرة بيكه وغيرته على الدين فلمَّا اطَّلع على كتابه هذا ذرف دموع الفرح واستدعى اندراوس وكاشفهُ بالامر فابى متذرعاً بحداثة سنه وعدم كفاءته لكنَّه اضطُرَّ ان يسلّم لارادة الله المعلنة اليه بصوت راعيه فرقّاه البطريرك يوحنا درجة الاسقفية يوم عيد القديسين بطرس وبولس في اواخر حزيران سنة ١٦٥٦ وبعد بضعة ايام اتى حلب (١ ليشغل كرسيهُ. ولدى وصوله قدَّمه القنصل الى البطريرك هديةً فاخرة فقبله البطريرك مرحّباً به لكنه لمَّا عرف من مجرى الحديث انهُ سُقّف من يد بطريرك الموارنة استاء جداً وانقلب عليه وما اراد ان يعرفهُ اسقفاً وان اراده الكثيرون من ابناء الطائفة السريانية

فلما درى المسيو بيكه بالامر وعرف ان البطريرك رفض قبول الاسقف الجديد انفذ رسولاً الى القسطنطينية وكتب الى الوزير والسفير الافرنسي فاستحصل بواسطتها من السلطان محمد الرابع امراً باستقبال السيد اندراوس من جميع طائفة السريان استقبالاً لائقاً بمقام رئيس اساقفة وان يُعترف به اسقفاً على طائفته وامر الباشا ان يُوقف كل مُعارض وعاصٍ على الاوامر السلطانية. فعندها خاب امل البطريرك شمعون وغادر حلب لئلّا يحضر حفلة تنصيب خصمه واستلم الاسقف الجديد كرسيهُ في ٩ آب من السنة نفسها (١٦٥٦) وكان فرح القنصل وجميع الكاثوليك ممَّا يعجز عن وصفه القلم

كان اندراوس الاسقف الغيور كسراجٍ على منارةٍ يضيء بعمله ومثاله وقد ضمَّ عدداً لا يستهان به من اهل جلدته الى الكنيسة الرومانية. فأثار ذلك كامن الحقد والحسد في صدور مناوئيه ودفع ملاكُ الظلام بعض الكهنة الحسودين فروّجوا الاشاعات الكاذبة ولفّقوا التخرّصات الكثيرة وهيّجوا الخواطر على ذلك الاسقف الذي كان

(١) قد ارسل معه البطريرك يوحنا الصفراوي السلطان الدويهي الشهير ليكون لهُ رفيقاً ومساعداً بالوعظ والارشاد فردّ كثيرين من السريان اليعاقبة وساهم صيّرهم كاثوليكيين (الدرّ المنظوم ١٠٩).

بسلوكهِ الحسن وفضائلهِ الباهرة قذى في اعينهم وتوبيخاً لسلوكهم الذميم وقد فازوا بقصدهم الخبيث واوقدوا عليهِ نار الاضطهاد فاضطرَّ ان يخرج من المدينة في ١٥ ايار سنة ١٦٥٧ وان يلتجئ الى جبل لبنان. فاخذ المرسلون يكشفون القناع للشعب عن مقاصد اولئك الكهنة الذين عصوا اسقفهم ولفّقوا في حقّهِ ما شاؤوا من الاكاذيب. وكان المسيو بيكه ايضاً يعمل على تهدئة الخواطر لكن هيهات ان تقنع الحججُ والحقائق عقولاً متمرّدةً مشبعة بالاضاليل

وظلَّ اولئك القوم في غيّهم ولم يرجعوا الى رشدهم الّا بوقوع حادثةٍ مفجعة كشفت عن بصيرتهم ستار الجهل وجعلتهم ان يندموا عمَّا فعلوا. وهي ان رجلاً وُجِد مذبوحاً في حيّهم وكان القاتل مجهولاً فطالب الباشا منهم ديَةً خارقة العادة. واذ كانوا عاجزين عن ادائها هرعوا الى بيكه يستجلفونهُ ان يساعدهم. فقابلهم القنصل بلطفهِ المعتاد وافهمهم ان هذا الحادث عقاب لهم عن ذنبهم في طرد راعيهم الذي كان يسعى لتقديسهم وانَّ عليهم ان يُعوّضوا عن مثل هذه الاساءة التي اجرموا بها امام الله في شخص خادمهِ الامين. فاذعنوا لكلامهِ ووعدوهُ [illegible] على شرط ان يساعدهم. وما كان يبذلُ المال ليوقفهُ عن اتمام مقصدهِ الشريف في ارجاع تلك الخراف الضالّة فدفع هو نفسهُ الديَة عنهم وأسرَ بسخائه وكرمه قلوبهم حتى صاروا يتسابقون الى رجوع اسقفهم. فوجّه بيكه عندئذٍ بعض اعيان الطائفة الى لبنان يطلبون الى الدراوس ان يرجع الى كرسيه ويقهر مخاصميهِ ويعيد مياه السلام الى مجاريها

واوجب الباشا ان يذهب الكهنةُ المشاغبون انفسهم في هذه المهمة فذهبوا لكنهم لم يفلحوا لان الاسقف ابى ان يترك خلوتهُ التي كان ينعم بها في قنوبين وقال لهم انهُ لا ينتظر اخلاصاً من قوم عاصين برجهين ولسانين. فذهب اليهِ عندئذٍ مرسلو طرابلس وافهموه ان واجب الضمير يقضي عليهِ بالرجوع الى رعيّته فلا يلقيها في ايدي ذئاب خطفة. وقدّموا لهُ حججاً اقنعتهُ بالرجوع. فعاد الى حلب في ١٢ آذار سنة ١٦٥٨ وكان لهُ استقبال حافل من جميع الكاثوليك وعزّزه القنصل بكل ما لديهِ من قوة وهدّد مخاصميه بالمعاقبة . لكن حقد اولئك الكهنة المعاندين بقي كامناً في صدورهم كالنار تحت الرماد فوشوا بالاسقف ثانية الى الباشا انه متواطئ هو والافرنسيس بحجة الديانة على ان يجعلهم عداة السلطنة العثمانيّة بجملة المسيحيين

المنبثين في بلاد السلطنة. فاثرت هذه الوشاية، وان من دون مستند، في عقول بعض زعماء الحلبيين وقاموا على الاسقف فاضطرَّ الباشا ان يلقيهُ في السجن وطلب لاطلاق سراحهِ عشرين الف ريال. غير ان المسيو بيكه توسَّط في الامر واطلع الباشا على سوء نيَّة الهراطقة وشرِّهم فاطلق سراح الاسقف حالاً. ولم يرجع الاشرار عن نصب المكائد ليسلبوا ذلك الاسقف حريته وحياته. اما الرب فكان يحفظه ويؤيده وكثيراً ما انقذه من يدهم بمعجزات ظاهرة كما ذكر حضرة الاب لويس الكرملي المنتسب الى القديسة ترازيا في تاريخ رهبانيته. فمنعاً للمشاغب وكفًّا ليد الاشرار في المستقبل استحصل بيكه امراً من الباشا مآلهُ انهُ، اذا اعتدى الهراطقة على الاسقف واضطروهُ بعدُ الى مغادرة حلب، تقع المسؤولية على كهنتهم ويؤدون جزاء نقدياً الفي ريال للباشا وخمسمائة للقاضي. وبذلك تسهَّل للمرسلين ان يدخلوا بيوت السريان وان يسمعوا اعترافاتهم في كنائسهم. وبفضل اطلاق الحرية لعمل الرسالة وبارشادات الاسقف الذي كان كايليا ثانٍ ممتلئاً غيرةً على صيانة قطيعه ارتدَّ كثيرون من المتعصبين للهرطقة الى الكثلكة

ولما كان المسيو بيكه مضطرماً غيرة على ارجاع جميع السريان الى امهم الكنيسة الكاثوليكية كتب الى الكرسي الرسولي يخبرهُ بنجاح الرسالات في اولئك الهراطقة وما يرون من الغبطة في ان يسودهم اسقف كاثوليكي معلقة على علمهِ وفضيلته آمال كبيرة في المستقبل. وبيَّن في رسالتهِ ان موقف الاسقف اصبح معززاً ومعضوداً من الباشا والباب العالي ومستوداً الى اوامر السلطان ضد الهراطقة الحسودين. غير ان هذا لا يُعتبَر شيئاً ما لم يكن ذلك الاسقف مثبَتاً كراعٍ على كنيستهِ بسلطان راعي الرعاة فيرجو من قداستهِ ان يمنَّ عليهِ بهذه النعمة. وارسل الى رومية بهذه المهمَّة الاب اسكندر الكرملي بعد ان افهمهُ اللازم لاجابة طلبه. لكنَّ المجمع المقدَّس اراد ان يتروَّى في المسألة طويلاً مخافة ان يقع ما تسوء عقباه ولم يستجب ذلك الالتماس الا بعد ثلث سنين اذ توجه من قبل المسيو بيكه الاب سيلفستروس الكرملي وكان راهباً فاضلاً وهو الذي توفي في حلب في ٢٤ حزيران سنة ١٦٧٠ بعد اربعين سنة قضاها في رسالة الشرق. فالحَّ هذا الاب بطلب التثبيت مجيباً على جميع ما كان يقف في سبيلهِ من المصاعب وحصل على براءة التثبيت من البابا كما كان يتمنى

وتسلّم المسيو بيكه تلك البراءة في سنة ١٦٥٩ وقدّمها في الحال للسيد اندراوس الذي اقتبلها بمنتهى البهجة والحبور وشرع عندئذٍ يمنح سرّ التثبيت للمرتدين الى الايمان ويشدّد العزائم الرخية ويقنع من كانوا يقاومون الحقّ. وقد كتب الى البابا اسكندر السابع كتاباً ضافياً يشكره فيه على ارساله اليه درع التثبيت وعلى شموله هو ورعيّته بعطفهِ السامي وفيهِ يبيّن فضل المسيو بيكه والمرسلين الذين كانوا لهُ ذراعاً قوية في جميع اعماله العائدة الى نشر الايمان الكاثوليكي. وسنداً وسلوى في جميع ما لاقاه من المحن ولولاهم لكان فضّل العزلة في جبل لبنان وانه الان قد تقوّى بأيد الله العلوي وبرعاية وبركة قداسة حبر الاحبار. وقد ضمّن ذلك الكتاب كل ما كان في قلبه من شواعر الخضوع والتعلّق المتين بالكرسي الرسولي

وبفضل ذلك الاسقف الغيور وبامثلتهِ الصالحة الجذّابة اعتنق ثلاثة ارباع طائفة السريان المذهب الكاثوليكي. ولزيادة فضلهِ أُقيم بطريركاً على اثر وفاة البطريرك شمعون وذلك بمساعدة المسيو بارون الذي كان قد خلف المسيو بيكه بالقنصليّة وبعض المرسلين اليسوعيين والكبوشيين والكرمليين الذين كانوا في حلب

وفي شهر آب من سنة ١٦٦٢ اعترفت بهِ الطائفة السريانيّة بطريركاً عليها بعد ان ثبّتهُ البابا وعيّن لهُ معاشاً سنوياً مئتي ريال روماني. ولم تكن مهامّ البطريركية لتُقعد بهِ عن غيرتهِ على نفوس رعيّتهِ وصيانتها كما ان شرف المقام لم يعتمه عن المعيشة البسيطة او الاماتات المتنوعة وكانت خطته هذه تزيد على كرامتهِ ومهابتهِ في اعين الناس فيدعونهُ بالبطريرك القديس(١

ويلوح لنا فضل المسيو بيكه والآباء المرسلين على الطائفة السريانيّة بمّا كانوا يبذلون من المساعي الجدّيّة والاموال الطائلة في رسوخ قدمها في الايمان فانهم قبل

---

١) قال عنه الدويهي في مسودّة لتاريخ الازمنة محفوظة في البطريركية المارونية: «كان مستقيم الايمان وذا غيرة جزيلة فربح نفوساً كثيرة للملكوت ووفّى الديون التي كانت على الكنيسة من عهد البطريرك شمعون واستفكّ جميع آنية الكنيسة وكتبها التي كانت مرهونة وجدّد غيرها وترك في الكنيسة اثنين وخمسين قنديلاً من الفضة وصندوقاً مملوءاً من الصلبان وفي مدة بطريركيته لا يلمس جماعته ولا كلّفهم نورية (عشور) كعادة الذين سلفوه ولا جمع صينية ولا رسم شيئاً على توزيع الاسرار. . . وعندما سلم الروح حزنت عليهِ سائر الطوائف واقاموا لهُ جنازة حافلة»

وفاة البطريرك اندراوس احتاطوا السلام وطلبوا بإشارة البطريرك نفسه بطرس اسقف اورشليم (١ ليكون خلفاً للبطريرك اندراوس المتوفى فلا يكون سبيل لرجوع البطريرك اليعقوبي بيد انهُ عاد فتربّع في البطريركية لان اسقف اورشليم تأخر مجيئه. ومن مراجعة آثار الكنيسة الشرقيّة للمرحوم الاب رباط اليسوعي (المجلّد الاوّل وجه ٩٦ الى ١٠٠) تعلم كم اقتضى من المساعي والمجهودات لارجاع البطريركية الى الكاثوليك

﴿ اعمال بيكه الرسولية ﴾ ولو اتينا على جميع اعمال الغيرة التي قام بها ذلك القنصل الفاضل في خارج حلب ايضاً لضاق المقام عن تبيانها مفصلة فنجتزي ببعضها وباهمّها كما تدلّ عليها كتاباته الى المجمع المقدس وما كتبه عنه المرسلون. فانه بعد ان ردّ عدداً وافراً من السريان اخذ يحرّض المرسلين على ان يشرعوا في ارجاع غيرهم من المبتدعين. وقد توفقوا بمعونة الله الى ارجاع افراد كثيرين حتى من الاساقفة ومنهم رئيس اساقفة الروم الـذي اعترف بالايمان الكاثوليكيّ بين يدي الاب برونو الكرملي. وقد اقام في مدينة الاسكندرونة كاهناً من المدينة نفسها لخدمة الكاثوليك القليلين فيها الذين رغم حالتهم كانت لهم الحرّية في كنيستهم يدقّون فيها الجرس وهذا كان ممنوعاً في غير موضع

وقد اتاه اثنان مسيحيان من عرب البادية فارسلها الى رومية لكي يثبتها في الايمان ولاجل جمع الاحسان ولدى عودتها أنس منها خيراً فاشار عليها ان يذهبا الى البصرة ويعملا على تهذيب وتعليم ابناء قبيلتها وقد ارجعا كثيرين بقداسة سيرتها واعمال غيرتها

فعرف بيكه بنجاحها وكتب الى المجمع المقدس يسأله ان يرسل اليها رهباناً لكي يثبتوا المرتدين الى الايمان ويساعدوا ذينك العاملين النشيطين. ولما ابطأ الجواب كتب ثانيةً ملحّاً في طلبه لئلّا يذهب الابطاء والتأخير بكثير من النفوس المسكينة. وكتب ايضاً مرّتين يطلب الحسنات للاب برتلماوس استلّيني (Stellini) المرسل في

(١) خلف اندراوس ومات بمكيدة من جرجس بطريرك اليعاقبة سنة ١٧٠١ ولم يقم بعد ذلك بطريرك على السريان الكاثوليك الى ان انتخب البطريرك ميخايل جروه سنة ١٧٨٣ (راجع ترجمة الدويهي ص ٢٨)

ديابكر لانه كان في حاجة ماسّة وكانت غيرته لا تصبر على التأخير في مثل هذه الاعمال الهامة. وكانت تلك الغيرة تُسعر في صدره نار الرغبة في ان يساعد على ارتداد جميع المسيحيين الشرقيين الخارجين عن الكنيسة

وكان في حلب رجل يسمّى شرف الدين يساعد المرسلين بتعليمه اياهم اللغتين العربية والتركية لكي يتمكنوا من ارشاد الشعب فاستنار بتقرّبه من النصارى وطلب العماد فارسله بيكه الى رومية بكتاب توصية الى الكردينال رئيس المجمع مبيّناً لهُ جميل صفات ذلك الرجل وكرم فطرته طالباً اليه ان يبقيهُ في رومية لاجل تعليم التلاميذ المعدين للرسالة في الشرق وبهذا يربح نفسه

﴿ القنصل بيكه واسرى النصارى ﴾ وما كانت اعمال البر والتقوى والغيرة والمحاماة عن الحقوق الدينيّة والمدنيّة لتمنعهُ من اعمال الرحمة والشفقة التي كان يقوم بها نحو اولئك المسيحيين المستعبدين تحت النير التركي. فكان يزورهم من وقت الى آخر ويعزيهم في احزانهم ويساعدهم في حاجاتهم وجعل بيتهُ ملجأً لهم وكان اذا امسى احدهم من مضطربي الحالة همّ حالاً بتسفيره الى اوربة لدى خروج مركبة فيزكيه جراذاً ويرسله صحبة رفيق خاص الى ميناء الاسكندرونة والى سفينة كي ينقذ اولئك التعساء من نير العبودية الثقيل

وهذا ما فعله سنة ١٦٥٩ مع شاب بولوني كان خادماً لرجل ارمني من طرابزون اراد مولاه ان يبيعه من رئيس الشرطة فخاف ذلك الشاب على ايمانه وقال لمولاه بكل جرأة وبأس: «الموت ولا الجحود» ولاذ بالقنصل بيكه فرحّب به وسرّ منهُ جداً وشراه بمبلغ وافر من المال وبعد ان حرّره امام القاضي قبله في بيته ثم ارسلهُ الى رومية وسأل كاتب اسرار المجمع ان يسفره الى بلاده بواسطة احد مواطنيه البولونيين الذين في رومية

وقد انقذ من ايدي غير المؤمنين نحواً من مئتي فتى وفتاة كانوا في خطر فقدان ايمانهم كما افاد السيو بونيون (M. Bugnon) الشاهد العياني في كتاب له من حلب الى السيو فيرماند (Fermand) رئيس مدرسة الرسالات الخارجية

على ان الاحوال ما لبثت ان اضطربت في حلب لان الصدر الاعظم رأى ما لباشا حلب المرتّضي وللقنصل الفرنساوي الصديقين الحميمين من النفوذ والسطوة ممّا كان

يكشف شيئاً من بهاء الباب العالي فحمله الحسد على ان يوقع بالباشا فارسل اليه يأمره بالحضور حالًا فظن الباشا ان ذلك لخيره ولترقيته الى وظيفة اعلى . فاستشار صديقه السير بيكه الذي استبطن ما كان يقصد ذلك الوزير من الشرّ تحت ستار الخداع فاشار على الباشا ان يبحر حالًا الى مرسيلية على سفينة مستعدة للسفر لما كان يرى فيه من حسن الاخلاق والميل الى النصرانيّة فاطاع اشارتهُ لكنهُ تأخر بالسفر . واذ ابطأ عن الاجابة الى امر الصدر الاعظم ارسل الباب العالي كابيجي باشا لكي يقطع رأسهُ لتأخرهِ عن اطاعة السلطان . فهرب الى العجم واحتمى عند حاكم التركمان لكن السلطان ارسل يتعقّبهُ وما زال في اثره حتى فتك بهِ . فاسف القنصل مزيد الاسف على موت صديقه وكان مفكرًا في الاعتزال عن وظيفتهِ لئلّا ترتخي بسبب مودّتهِ للباشا المذكور الملاقات الوديّة مع الباب العالي . لكن الله جلّت حكمتهُ أخَّره لمقاصد ربانيّة الى سنتين

وفي تلك الغضون خرج احد الباشاوات على السلطان سنة ١٦٦٠ واتى يحاصر حلب وضمّ اليهِ بعض اعيان المدينة لمحاربة الوزير وكسرهُ وبرجوعه الى القسطنطينيّة ارسل اسماعيل باشا لزيارة البلاد السوريّة فاتى اسماعيل مسرعاً الى حلب يهدئ الخواطر ويضرب على ايدي مناصري الثائرين فكانت المدينة مثّلًا فيهِ تمثلت كل المشاهد الدموية الفظيمة مدة عشرة ايام قُطع فيها رأس خمسين متمردًا

﴿ البولوني الشهيد ﴾ وفي هذه السنة نفسها كان شاب بولوني مستخدماً عند احد الاغاوات المسلمين وكان قد جحد ايمانه فراوده يوماً مولاه عن نفسهِ فلم يوافقه على شرّه فتهدّده بالقتل واستلّ خنجرًا ليقتلهُ فما كان من البولوني الّا ان قبض على الخنجر وطعن بهِ احشاء الواثب

ثمّ فرّ هاربًا من حلب واتى معسكر اسماعيل باشا ولمّا سئل عمّا فعل اقرّ بكل براءةٍ فأُلقي في السجن بامر الباشا وحُكم عليهِ بقطع الرأس . وبينا هو ذاهب لكي يتجرع كأس المنون قال باعلى صوته : « قد اخرجوني عن ديني بالرغم مني لكني الان أُسرّ واغتبط بان اموت مسيحيًا فاكفّر بموتي عن خطيئتي » . وقد التقى في طريقه باثنين مسيحيين فقيرين فاعطى احدهما حذاءهُ والاخر منطقتهُ وقال لهما: « صلّيا يا اخوتي لاجلي » . ولما وصل الى منقع الدم رسم اشارة الصليب وقال: « اني

امرت مسيحياً خاضعاً ومتحداً بالكنيسة الرومانيـة » واستقبل الموت بتمام التسليم والفرح حتى ادهش جميع الحاضرين

وكانوا اماتوا في الموضع نفسه عدّة مجرمين افترست جثثهم الكلاب في ليلة قتلهم او الليلة التالية ولم تقرب الكلاب من جثة ذلك البرلوني فبقيَت مدة عشرة ايام في موضعها سالمةً غير مشوهة تنبعث منها رائحة ذكية. وهذا الحادث الغريب مسنود الى شهادة اناس ثقات. وكان الجميع مندهلين ومتحيرين من هذا الامر. واتى المسيحيون الى الباشا يسألونهُ ان يسمح لهم بدفن الجثة فلم يرضَ حتى اتاه المسيو بيكه وقدَّم لهُ مبلغاً من المال فاجاب سؤالهُ

﴿داؤد الشهيد﴾ وفي تلك السنة ١٦٦٠ سعى واحد من الروم يُدعى يوسف برجل من طائفتهِ يسمّى داؤد أُقيم بدلًا منهُ لجباية خراج الدولة • وكان داود ممدوحاً ومشكوراً من الجميع لحسن معاملتهِ واستقامتهِ فأثار هذا الثناء كامن الحقد في قلب يوسف فعزم ان يوقع بداود الذي كان حادّ الطباع ذا مزاج عصبي فاحتال عليهِ يوماً بان حملهُ على الغضب. وبينا هو في ثوران غضبه وقد طار صوابه ألبسهُ يوسف عمامةً خضراء لا يجوز ان يتعمّم بها غير المسلمين. فسار بها داود الى بيتهِ وهو لا يعي. وما هي الا هنيهة حتى اتى اليهِ المفتي وزمرة من رعاع القوم في مقدمتهم يوسف الخؤون شهدوا انهُ لابس العمامة الخضراء مدّعين انه اسلم وطلبوا منهُ ان ينطق بالشهادتين فغلت مراجل الغيظ في صدر داود فطرح العمامة بالارض واخذ يقذف خصمهُ بالشتائم ويجاهر بكونهِ مسيحياً لا يحيد شعرةً عن دينهِ وبذلك وقع في الشراك الذي نصبهُ لهُ ذلك الشقيّ. فرفعوا امرهُ الى الباشا وبالغوا بالشكوى عليهِ فزُجَّ في حبس مظلم وصُفِّد بالاغلال ثمّ حُكم عليهِ بالموت ان لم يثبت في اسلامهِ المزعوم فكاد يستسلم الى القنوط واليأس. ولعلّهُ كان جحد دينهُ لولا القنصل بيكه الذي وقف على امره وارسل سرًّا الى السجين الابَ برونو المرسل الكرملي فوجدهُ في حالة يُرثى لها لا انيس لهُ ولا جليس لكنهُ لم يزل يؤانسهُ ويلاطفهُ حتى انعش قواهُ وثبّتهُ في ايمانهِ ومنحهُ اسرار البيعة بعد ان اقنعهُ بعقائد الكنيسة الكاثوليكيّة

فمذ ذاك الحين تغيّرت احوال ذلك المسكين وامتلأ قلبهُ فرحاً فاخذ يستعدّ للموت بل للاستشهاد دون خوف ويرى نفسهُ سعيدًا اذ يهرق دمهُ في سبيل دينهِ •

وأتى اليه اناسٌ من الاصحاب والاقارب يحضّونهُ على تضحية دينهِ ان لم يكن باطناً فعلى الاقل بالظاهر فردَّهم خائبين. ودخلت والدتهُ على الباشا تسترحمهُ لاجل ابنها فلم يُصغِ الى بكائها وعويلها لان ذلك الغدّار يوسف قد اوغر صدره على داود

وبعد ايام قادوهُ الى محلّ العذاب فطلب قبل ان ينفذوا فيه الحكم ان يصلّي قليلاً فجثا على الارض رافعاً عينيهِ وقلبهُ الى السماء وشكر الله على انهُ اختارهُ لان يكون معترفاً بايمانهِ وسألهُ ان يفتح لهُ باب السماء بعد موتهِ كما فتح له باب رحمتهِ في حياتهِ. ولما اتمّ صلاتهُ استلّ الجلّاد سيفهُ وعصب عينيهِ وحرّضهُ على الخضوع لامر الباشا فكرّر جهاراً الاعلان بايمانهِ دون سواه فقطع رأسهُ وصار ظافراً باكليل الشهداء.

كانت وفاة ذلك الشهيد في ٢٩ تموز سنة ١٦٦٠ . فرثى لهُ اهلهُ وكل الذين حضروا موتهُ لكنّهم لثبوا على ثباتهِ وما لبث الله ان مجّد عبدهُ وذلك انَّ جثّتهُ الطاهرة بقيت ملقاةً مدَّة ثمانية ايام مع بعض المجرمين الذين قُتلوا جزاء عن آثامهم فافترست الكلاب اجسادهم ولم تمسّ جثة داود بأذى. ولم يأذن الباشا بدفنها الى ان دفع له القنصل بيكه مبلغاً من المال فصار لهُ مأتم حافل حضرهُ بطاركة الروم والسريان والارمن مع خمسة اساقفة وعدد من الكهنة وعرضوا جسدهُ لاكرام الشعب فكان الجمهور يتسابق الى تقبيل رجليهِ ويلتمس شيئاً من قصاصة شعرهِ او ثيابهِ كذخيرة - ثمّ رافقهُ الى ضريحهِ جمع غفير من كل الطوائف بالشموع والمصابيح وكان اربعة من الاساقفة يحملون نعشهُ ودُفن في مقبرة الروم وتقدَّم القنصل بان يحفروا على قبرهِ اربعة ابيات لاتينيّة تطرئ شهامتهُ في موتهِ الذي كان لهُ بابَ الحياة وبدلاً من رأسهِ المقطوع نال نعمة الاتحاد بهامة الرسل ورأس الكنيسة المنظور. وقد انتقم الله للبري من يوسف خصمهِ المنافق الذي تقلّد مكان داود وظيفة الجباية وانما ظهرت خيانتهُ بعد قليل فحُكم عليهِ بالشنق على باب المدينة فقُتل ورُجم بالحجارة بعد موتهِ وكذلك الباشا لم يتمّ سنة ولايتهِ حتى اصدر السلطان الحكيم بعزلهِ وبعد ان استدعاهُ الى اسطنبول امر بقطع رأسهِ

فزاد بذلك اكرام نصارى حلب للشهيد لاسيما بعد أن شُفيت والدتهُ من فقدان بصرها فبلّلت عينيها بماء الورد الممزوج بدم ابنها فابصرت لساعتها وانضمّت مع

عائلتها الى حجر الكنيسة الكاثوليكيّة . وكان للشهيد اخ صغير متّقد الذهن زكيّ القلب ذو تقى وورع فارسلهُ الاباء الكرمليّون الى رومية ليتخرّج في العلوم الدينيّة في مدرسة انتشار الايمان ثمّ دخل الرهبانيّة الكرمليّة وتسمّى باسم ابيهِ داود منتمياً الى القديس كارلوس . وبعد ان تدرّب على الآداب الرهبانيّة في ديرهم المعروف بالقديس بنكراس وعلّم العربيّة مدّةً اشتهر بفضلهِ وفضيلتهِ فوضعهُ الحبر الاعظم على منارة الكنيسة بأن جعلهُ نائباً رسوليًا على كنيسة ازمير فهدى بأعمالهِ وتعليمهِ نفوساً عديدة الى الايمان

وبقي المسيو بيكه مثابراً على اكرام شهيد حلب فاحتفظ لنفسهِ كذخيرة قطعةً من القماش المطرّز المصبوغ بدمهِ ومصدغةً كان يسند ذلك المعترف المجيد رأسهُ اليها في سجنهِ . فكان قنصل حلب يعدّهما كافخر كنوزهِ واخذهما معهُ الى العجم

وقد جعل الله دم هذين الشهيدين اي الشاب البولوني وداود كزريعة مثمرة ارتدّ بسببهما عدد عديد من الاخوة المنفصلين ولاسيما من اليعاقبة الى حجر الكنيسة الرومانية

٣° قنصل بيكه والكرسي الرسولي — وقد أطلع المسيو بيكه الكرسي الرسولي على كل هذه الحوادث وخابر المجمع المقدس بخصوص الاسقف الكاثوليكي اندراوس اخيجان السرياني وبيّن ما لهُ من الايادي البيضاء في خدمة الكنيسة وإفحام المراطقة في الدفاع عن العقائد الكاثوليكيّة فنال لهُ ولكنيستهِ مساعدات ماليّة

فثبت لكلّ اعضاء المجمع المقدّس ما كان عليهِ قنصل حلب من التقى والغيرة الرسوليّة واثنى عليهِ الكردينال آزوليني (C^al Azzolini) وكتب في شأنهِ امينُ اسرار المجمع المنسنيور البريزيو « انّ هذا القنصل ذو تقوى نادرة المثال وغيرة لا تبارى فهو لا يضنّ بمالهِ وتعبهِ لحفظ الايمان ومساعدة المرسلين والاهتمام بكل شؤون الدين» وتمنى لو كان ذلك القنصل مع بقائهِ في منصبهِ يعتنق الحالة الاكليريكية ثمّ اوعز الى الكرادلة ان يطلبوا من الحبر الاعظم ان يخصّهُ ببعض النعم ويساعد الاسقف اندراوس اجابةً الى طلبهِ ففعلوا

وقد استحسنوا ما عرضهُ كاتب اسرار المجمع فكتبوا الى السفير البابويّ في فرنسة كي يخابر الملك لويس الرابع عشر ويسألهُ أيرضى ان يبقى المسيو بيكه قنصلاً

لو دخل في مصافّ الاكليروس؟. وفي كتابهم ما ينبئ بسموّ اعتبارهم لشخصهِ حيث كتبوا ما تعريبهُ :

ليس للمجمع المقدَّس في انماء المعمور عامل يتفانى في خدمة الدين الكاثوليكي كالمسيو بيكه قنصل فرنسة في حلب فانَّهُ يعضد المرسلين في الشرق بكل قواه ويعزّز بجلدهِ ومآثر تصرُّفاتهِ الدين الكاثوليكي وقد غنم باعمال غيرتهِ المشهورة رضا الكرسي الرسولي واعتبارهُ الممتاز . ولمّا درى هذا المجمع ان القنصل المنوَّه بهِ عازم ان يعود الى فرنسة اراد ان يقنعه بقبول الحالة الاكليريكية وان يرقيهُ فيما بعد لما يرى فيهِ من الاستحقاق الى درجة اعلى اذ يقيمه مشرفاً على الرسالات الشرقيَّة وهذا مما يرضي جلالة الملك ويبين لهُ ان الكرسي الرسولي لا فرق عنده بين امَّة وامة بل ينظر الى الاستحقاق الشخصي . والمجمع المقدس يرجو ان يبقى بيكه قنصلًا لاجل نجاح اعمالهِ لأن لهُ بصفة قنصل نفوذاً لدى الباب العالي والسلطان ومن دون بقائهِ في القنصليَّة — وان كانت لا تتفق مع الحالة الاكليريكية — لا يكون لهُ النجاح مضموناً . وطلبوا من السفير ان يأخذ رأي الحكومة الافرنسية في هذا الامر» :

ثم اردفوا ذلك الكتاب بآخر مبيّنين فيهِ إلحاح البابا في مسألة القنصل بيكه للحصول على المرغوب بهِ قبل فوات الفرصة لانَّ زمن قنصليَّتهِ كاد ينتهي وهو يقصد الرجوع قريباً الى فرنسة . وقد شاء الاب الاقدس ان يعتمدهُ في جميع المهامّ الدينيَّة في الشرق

وبياناً لاعتبار الحبر الاعظم لذلك الرجل الغيور اهداهُ بعض الالطاف التقويَّة واصحبهُ برسالة عبَّر لهُ فيها عن عواطفهِ وشكر نيافة الكرادلة وتقديرهم لخدمهِ الجليلة ورغبتهم في بقائهِ في منصبهِ وتمنَّى لو امكنهُ ان يأتي الى رومية فيحلّ فيها ضيفاً كريماً ويفاوضهُ في امور الدين الكاثوليكي في الشرق

وفي تلك الاثناء مرَّ في حلب عدَّة مرسلين كانوا في وشك السفر الى الشرق الاقصى للتبشير بالانجيل وكانوا كلُّهم ينزلون ضيوفاً في دار المسيو بيكه فيثنون على مروّتهِ وايمانهِ اعطر الثناء منهم السادة الاساقفة دي لاموت لامبار (de la Motte Lambert) مطران بيروت شرفاً وكوتولندي (Cotolendi) مطران ميتيلوبوليس ودايدْيه (Deidier) اسقف عسقلان ولهم في تاريخ رحلهم كلام واسع في شمائل قنصل حلب ويتمنّون لو انتظم في مصافّ الاكليروس ليتفرَّغ الى اعمال الرسالة ومصالح الدين

ولم يكن بيكه ليذي نيّته السابقة ان يخدم الدين في سلك الكهنوت لولا انشغاله بأمور القنصليّة وخصوصاً حبّهُ البنوي لوالده الطاعن بالسنّ وهو يخاف ان يتركهُ بلا سند . وقد زال خوفهُ هذا اذ بلغهُ انَّ اباهُ بعد موت امرأته زهد في العالم وانحاز الى مصافّ الاكليروس . بل كتب الى ابنهِ يستوضحهُ عن نيّتهِ فيما اذا كان لا يزال منكرًا في الدعوة الاكليريكيّة كأخوتهِ وانهُ مستمدّ الى ان يسلّمهُ بعض املاكهِ ليستعين بها لخدمة الرسالة والكنائس الشرقيّة

فما كان اشدّ فرح بيكه اذ وقف على كتاب والدهِ فاخذ مذ ذاك الحين يفكّر في الوسائل لتحقيق رغبتهِ في خدمة الله بالكهنوت وعقد العزم على ان يذهب الى فرنسة لقبول الدرجات المقدّسة . فعلم السيد اندراوس اخيجان بقصدهِ ففرض عليهِ ان يقبل من يدهِ الدرجة الاولى الاعداديّة للكهنوت اعني قصّ الشعر . فلم يتمالك القنصل من اجابتهِ فاقتبلها منهُ في ١٠ ك ١ سنة ١٦٦٠ في كنيسة الآباء الكرمليّين وتسجّل ذلك في سجلّ ديرهم بما تعريبه : «ان فرنسوا بيكه الذي ماثل يوحنا الرسول في سنّتهِ وايليًّا في غيرتهِ ويوحنا المعمدان في زهدهِ قد اقتبل من يد حضرتنا الدرجة الاكليريكيّة الاولى اي قصّ الشعر»

﴿ خدمة المسيو بيكه للجائعين والمطعونين ﴾ ومن ثمَّ اخذ المسيو بيكه يعتزل جميع الملاهي العالميّة زهدًا بالدنيا ويتفرّغ لكلّ المشروعات الخيريّة . وقد اتت تلك السنة (١٦٦٠–١٦٦١) شاهدًا باهرًا على سموّ فضلهِ . فانَّ المجاعة كانت حلّت بسكّان حلب حتى بيع كيل القمح تسعة اضعاف ثمنهِ وكسدت التجارة وبطل الشغل عن العملة واكثرهم من المسيحيين وزاد الطين بلّةً بازدياد الضرائب للدولة . فاضطرّ الفقراء الى بيع امتعتهم وثيابهم ليشتروا بثمنها خبزًا فباتوا في اكواخهم جائعين عريانين وبلغ بهم الشقاء الى ان باعوا اولادهم من المسلمين

فنصب المسيو بيكه نفسهُ وليًّا لاولئك المساكين فكان صباحَ مساء يتجوّل في بيوت المحتاجين فيوزّع عليهم ما يجدهُ في صندوق القنصليّة ويجمعهُ من الجالية الفرنسويّة والمرسلين من الحسنات . وكنت ترى قومًا من الاهلين من كل الطوائف والاديان مزدحمين على بابهِ فلا يردّ احدًا خائبًا . وبلغ مجموع ما انفقهُ في اسبوعين فقط

ثلثة آلاف لبرة، وكان المرسلون يساعدونهُ في توزيع تلك الحسنات وفي عيادة المرضى وعلاجهم ...

ولم يلبث الوباء ان فشا في الناس بعد المجاعة فكان عدد المصابين يزداد يوماً بعد آخر بالعدوى حتى مات منهم الوف مؤلفة . فاستصحب بيكه اطباء البلد وقسمهم على احياء المدينة وهيَّأ لهم الادوية التي يجب وصفها للمطعونين وكان القنصل يخاطر بنفسهِ ويتعرَّض لفتك الوباء غير خائف على حياتهِ

وقد أسف اشدَّ الاسف على وفاة الاب برونو الكرمليّ الذي ذهب شهيد محبّتهِ في خدمة المطعونين في ٢٩ حزيران ١٦٦١ وكان القنصل يقول عنهُ قبل موتهِ: «ان مات فقدتُ حاب رسولًا غيورًا ونالت السماء راهباً قديساً» وقد تعزَّى عن وفاتهِ بما حصل بشفاعتهِ من الكرامات والمعجزات المنبئة عن عظم مجدهِ في السماء. من ذلك ما رآهُ احد الكهنة اليعاقبة من النور على قبرهِ فطلب لاجل ذلك الارتداد الى الكنيسة الكاثوليكيَّة

ثمَّ اخذت تلك الازمة تزول شيئاً فشيئاً وتحسَّنت احوال التجارة وأتت الى مرفأ الاسكندريَّة عدَّة مراكب مشحونة قمحاً فاخذ رسمها ووزَّعهُ على المحتاجين فانفرجت امورهم

ومما يُذكر فيشكر لهُ في تلك المدَّة انَّهُ انقذ ولدين مسيحيين كان ابوهما أسلم ومات يوم ختانتهِ من الالم فاراد الباشا ان يتبعهُ ولداهُ في اسلامهِ فأبيا واعترفا بكلّ جرأة بإيمانهما وقاسيا لذلك آلاماً شديدة وبقيا في الحبس الى ان عُزل الباشا ومات شنقاً في القسطنطينيَّة، فبذل بيكه مالًا للقضاة وأفرج عنهما لكنَّ الاصغر مات بعد قليل لما قاساهُ من الالم مدَّة حبسهِ

وكلّ هذه الاعمال الجليلة التي كان يأتيها بيكه كانت تؤثر في احبار الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الرومانيَّة فشهدوا لتعاليمها ومن جملتهم مكاريوس بطريرك الروم المجاهر غير مرَّة بإيمانهِ الكاثوليكي

وفي غضون ذلك بلغتهُ رسائل الحبر الاعظم اينوشنسيوس الحادي عشر والمجمع المقدَّس المثنية على همّتهِ وخدمهِ للكنيسة مع رغبتهما في ذهابهِ الى رومية . فاخذ يستعدّ للسفر واوَّل ما احبَّ استدراكهُ ان يختار لهُ خلفاً في منصب القنصليَّة فوقع

نظرهُ على تاجر افرنسي كان مكرَّماً في الشهباء لتقاهُ وحسن مزاياهُ . وهو فرنسوا بارون (Fr. Baron) فانتدبهُ الى هذه الرتبة فكان خير خلف لخير سلف

﴿ سفر المسيو بيكه من حلب الى رومية ﴾ ولمَّا شاع خبر سفر القنصل بيكه من حلب عُدَّ الامر كخطب أليم وبليَّة عموميَّة فكان رؤساء احبار الشرقيين واعيان البلد يزورونهُ ويعلنون باسفهم لفراقهِ . وكثيراً ما كانت تمتزج عبراتهُ بعبراتهم

واذ كان بيكه معوِّلاً على الذهاب الى رومية اختار عدداً من اولاد المرتدّين حديثاً الى الايمان الكاثوليكي ليتخرَّجوا في مدارس رومية ثم يعودوا فيخدموا مواطنيهم . وصحبهُ ايضاً كاهن من اليعاقبة كان انضمَّ الى الكثلكة يدعى عطاء الله مع شابٍ ارمني اراد ان يتلقَّن العلوم في عاصمة الكثلكة ثم يسعى الى ارتداد الغريغوريين في الشرق

وكان آخر كلام بيكه عند وداعهِ لاهل حلب النصارى ان يعيشوا بالمحبة والاتحاد ويتمسَّكوا بعرى الايمان . ولما سار متوجِّهاً الى الاسكندرونة شيَّعوهُ الى خارج المدينة وما توارى عنهم حتى رافقتهُ قلوبهم وباتوا يبكون فراقهُ بدموع سخينة

ابحر بيكه مع رفقتهِ في اوائل كانون الثاني سنة ١٦٦٢ وكان سفرهم ميموناً مدة بضعة ايام لكنهم التقوا وهم على مسافة بضعة اميال من مالطة بخمسة مراكب لقرصان البحر من طرابلس الغرب فخاف الركاب من ان يقعوا بين ايدي اولئك الاشقياء . امَّا خادم الله المسيو بيكه فلم يجزع بل ذهب الى غرفة القبطان واخذ يصلي ثم عاد يشجع كل المسافرين فهبَّت في الحال ريح اضطرت القرصان ان يغيِّروا طريقهم فنجا المسافرون من شرّهم . ثم عصفت زوبعة وهاج البحر وكادت السفينة تغرق فبادر بيكه الى الصلاة وبتوسله الى العذراء مريم والى القديس يوسف هدأ النوء العاصف وزال الخطر

ورست السفينة في مالطة وبما انه كان على المسيو بيكه في طريقه بعض المهام التي تستلزم وقتاً طويلاً ارسل الاولاد الذين اتى بهم من حلب مع احد اعوانه الى رومية وصرف هو شهر شباط بين مالطة ونابولي . وفي اوائل اذار وصل رومية حيث كانوا ينتظرون قدومه بذاهب الصبر (لها بقيَّة)